

المرأة

ماضيها — حاضرها — مستقبلها

من السهل على الباحث التفريق بين المظاهر التي يمتاز بها عصرين من العصور المتباينة ، وبهذا يمكنه أن يلاحظ فعل سنة التطور التي تقضي على فكرة إبقاء القديم على قدمه . والمرأة لا تخرج عن أن تكون مظهراً من المظاهر المتعددة التي يلد للباحث المقارنة بين الخطوات التي قطعتها في العصور المختلفة .

لما انتقل الانسان الاول من الهمجية الاولى إلى فجر حياته الحالية نشأت بزره نظام المجتمع في الكهوف ، حيث كانت تقيم أنشاء وحولها صغارها ، ولم يكن تردد الرجل عايتها إلا تلبية نداء الطبيعة وحفظاً للتنوع . وعند ما تطور الفكر في الانسان وارتقى عرف التملك وحاول تطبيق الفكرة على كل شيء ، فأصبحت القبيلة تملك جماعة من المحاربين ، وجماعة من النساء ، وقطعانا من الحيوانات ، ومساحة من الارض . وكانت النساء مباحات للجميع وعملهن محدود لا يخرج عن اكثار عدد المحاربين والقيام بالأعمال المحلية . في حين انحصر عمل الرجل في حمل السلاح لدفع الغارات والنهب وللقنص .

وكان لقوة الزراع الشأن الاول . ولذا استبد الاقوياء بالضعفاء ومنهم النساء . وقد كان المنتصرون يسبون نساء أعدائهم بعد استئصال شأفة كل محارب معاد يعثرون عليه . ولما ازداد الترف بازدياد غنى القبيلة اضطجع الرؤساء في عقر دارهم وتركوا الغزوات لمن يبنى الشهرة من أتباعهم المتحمسين ، وبجئوا لأنفسهم عن اللذة وطيب العيش فوجدوها في النساء . وقد يكون السبب المدافع لؤلئك الزعماء على احتكار نساء مخصوصات لأنفسهم انبثاق حاسة « الميل إلى الجميل » فيهم وهكذا أصبحت المرأة أداة للذة ، فأنحطت مرتبتها أكثر مما كانت عليه في عهد كان للقوة فيه المكان الاكبر وكانت السراري فيه في تكاثر مستمر ، وفي حين كان عدد الرجال في نقصان لكثرة ما كان يفنى منهم في الحروب والتعرض للخطر

وزاد في انحطاط المرأة انها كانت أكثر اتصالاً برجال الدين المشعوذين لأن

الرجال كانوا غالباً بعيدين عن نظريات السحر والتنجيم والخوارق فاذا رجعوا كان لهم من لعبهم أو قصصهم ما يقال من تأثرهم بالخيالات والترهات التي كان للمرأة وقت كاف لاستيعابها . وكان لها شغف بالوقوف على الغريب منها قدر ما كانت يميل لسماع قصص الحروب والمخاطرين من الرجال . إذن فهناك أسباب أدت إلى انحطاط المرأة في صدر التاريخ هي القوة الجسدية والسبي وجو الشعوذة الدينية التي عاشت فيه .

وحتى في فأتحة العصر الصناعي عكفت المرأة على صناعات كان الرجل يأنف من التدنى اليها ولكن اتساع العمران غير الاساليب المعاشية فحاول الرجل مكرهاً أن يزاحم المرأة في صناعاتها ولكنها كانت سبقته وأتقنت ما تعلمته قبله فاضطر أن يلتفت إلى الاتجار بما كانت تصنعه ، فخاب البحار ملبياً ميوله الطبيعية إلى اقتحام الاخطار ، فاكسب معلومات جديدة وصناعات حديثة اختص نفسه بها وعلى مرور الزمن نال بها مركزاً رفيعاً . في حين كانت المرأة تعمل على الطريقة القديمة لبعدها عن الاختلاط بأوساط مغايرة لوسطها ، وبيئات مباينة لبيئتها .

وكان من نتيجة ذلك أن غرست في المرأة صبغة حديثة هي دقة الصنعة التي تحتاج إلى سعة صدر وصبر طويل ، كما اتجه ميل الرجل إلى العمل المضني الذي يحتاج للحركة والمجازفة . ولما زادت الاختراعات والاكتشافات ولم تعوز الحال الحداد مثلاً إلى أن يستعمل عضلاته لحلول الآلات محلها ، انفتح باب الأمل أمام المرأة وأصبح لصبرها مجال واسع . وهانحن الآن نشاهد الرجل والمرأة أحدهما يواجه الآخر في مطالب الرزق . هي تطلب مكاناً لها تحت الشمس وهو يدافع عن معاشه . فنحن على أبواب ثورة لا بد من أن يحدث فيها الجنسان

كذلك قلت الحروب وامتنع السبي وكاد الجنسان يتساويان في العدد . أما الخبز فلم يعد في الامكان نهبه ، بل يشترط العمل لنواله . فكيف يتيسر لرجل أن يحتفظ بقطيع من النساء في بيته ، ومن أين يتيسر له اطعام غيره وهو عاجز عن كسب ما يحتاج اليه ، وهو أضعاف ما كان يحتاج اليه أسلافه الاولين . فالكفايات أصبحت ضروريات ، وارتفع مستوى الحياة لدرجة لم يتصورها الأقدمون ، حتى لقد اجبر الرجل على التغاضي عن ظهور المرأة في ميدان العمل ، فوقف مكتوف اليدين ينظر اليها وهي تهدم آخر حجر من صرح سيادته عليها .

وما دامت المرأة قد وقفت على طرق الكسب ولم تعد تعتمد على الرجل في كسب قوتها ، فهي مستعدة لتحمل كل تعب بأقل أجر لتأكل وهي حرة طليقة . لان قسوة الرجل وأنايته لم يغربا عن بالها بعد ، فكم كانت تتعذب وتتعب ولا تجد إلا ما يسد جوعها مما يرميه اليها .

فهل إذا عملت المرأة وربحت تقبل ذل الزوجية ؟ هذا ما يخافه علماء الاجتماع في الوقت الحاضر وكثير منهم يتنبأون بانهدام العائلة . ولكنهم لم يصلوا بعد الى الاتفاق على ما ينتظر أن يحل محلها ، إذا كان لابد من حلول نظام آخر محل هذا النظام الذي أخذ في الاندثار .

والسؤال ينحصر الآن في هل تجرى مصر في هذا الطريق ؟ أم لا ؟ والجواب نعم ، فقد امتنع التجار بالرقائق الأبيض ، ومال أغلبية الناس للاقتصار على امرأة واحدة بعد ما كانوا يحوزون من السراى والمحظيات كل ما ملكت أيمانهم من النساء . وها نحن نرى السرايا والقصور والمنازل المستقلة تزول تباعا ، ليحل محلها عمارات شاهقة مقسمة الى شقق صغيرة لا يمكن للمرأة أن تتحمل المعيشة بين جدرانها وقتا طويلا . وأيضاً نجد أن قيمة النقد في انحطاط ، بيد أن طلباتنا في ازدياد ، وهذا ما يمنع كثير من الشبان عن الزواج . فاذا ذكرنا بجانب هذا أن فتياتنا غير متعلمات ، وأن آباءهن على وشك مفارقة الحياة دون أن يخلفوا لهن ما يعشن به ، لم يكن لنا أن نعجب اذا رأيناهن يسهن جهدهن لاصطياد سيد ينفق عليهن بأى بذل . وأما طبقة المتعلمات فاعلبن يملن الى كسب طعامهن بعملهن بعيدات عن غطسة الرجل .

وسنواجه في هذا البلد نضالا أشد من النضال الذى قام في الغرب ، لان هذا النظام قد سار هنالك على سنة التطور والنشوء . أما هنا فسيكون النضال عبارة عن سلسلة انقلابات وثورات .

والحالة المنتظرة واقعة لا محالة — لان منعها من المستحيل — فاذا أردنا أن نكسر من حدتها ونلطف من سورتها ، فلنعكف اذن على تعليم البنات تعليما عمليا عاليا حتى لا تضطر الى الاشتغال بمهنة اشباع شهوة الرجل البهيمية ليس إلا . وقد يقول قائل بان الغرب قد أوصل المرأة الى هذه النتيجة . وهنا وجه الخلاف بيننا . فانه يجب علينا أن نعلم بان تلبيه الانسان لنداء الطبيعة أمر لا مفر

منه يؤتى هذا باتصال فردين كل منهما من جنس مختلف عن الآخر ، أما برابطة مقدسة أو برابطة حرة . والخلاف هنا ينحصر في تقدير نوع الرابطة . وأما المرأة التي تجرى وراء الرجل لتسد حاجته الشهوانية من أجل معاشها ، سواء أكان ذلك بزواجه منها أو بمعاشرة لها ، فغالها مختلفة عن تلك تمام الاختلاف . لأن الأولى لا تقع تحت تأثير الرجل الا وقت حاجتها لتلبية نداء الطبيعة ، وأما الأخرى فتجري وراء أكل خبزها الذي تحتاج اليه ثلاث مرات يوميا ، ولأجل كسائها ولأجل اقامتها تحت سقف وبين حيطان ، وهذا أمر حاجي دائم .

فالتطور لا بد منه ، والانقلاب لا محالة واقع . لهذا كان الواجب علينا أن نوجه خطى هذا الانقلاب في وجهة يستفيد منها المجموع .

ولقد أخذت فكرة السفور في الانتشار ولم يقد الجدل في القضاء عليها . وبدأ الجامدون يقللون من غلوائهم ضد تعليم المرأة تعليما راقيا ولم يبق أمامهم إلا النظر بحسرة الى ضحايا الغفاف والاخلاق . وهو أمر لو علموا أنه لا بد منه تبعاً لجهل المرأة وحاجتها الى من يطعمها ، أكثر مما هو طلباً لسد حاجة شهوانية ، لأن طلبها الشهوة بهذه الصورة الدائمة لا يعقله من له أدنى وقوف على حقيقة الطبيعة البشرية ، اذني لكان لهم طريق غير الطريق التي يسلكونها ولسارعوا الى الاصلاح بدل الندب والنواح .

المرأة بتبرجها أو تهتكها تقوم بمظاهرة تطلب بها منا أن نوجد لها عملاً لدنيا لتطمئن على يومها وعلى فلها . فهي تبذل كل جهدها وتنصب شباك جملها للتصيد لها رجلاً يمكنها الاتكال عليه وهي في بيتها . والرجل يتهرب من تحمل المسؤولية لانه لا يجد في المرأة ما يجذبه الى البقاء بقربها مضحياً بكل راحة ، إلا نداء الطبيعة . المرأة عندنا لا تعرف معنى لمصادقة الرجل ولا تعرف كيف تتفاهم معه ولذلك تجد الرجل ينصرف عنها للبحث عن هاتين الخلتين . وأما المرأة الغربية فسواء أكانت خلية أم حليمة ، فهي دائماً مع الرجل أين حل وأين ذهب . حتى ان سير رجل في احدي الطرق وحيداً أو مع رجل آخر ، أصبح من المستقررات . اما هنا فعمل العكس من ذلك تجد أن الرجل لا يعرف المرأة الا في البيت فاذا لم يهذبها بالتصادقة وتتفاهم معه فإن يهتم في المستقبل — عندما تنقلب النظم الحالية سواء أرضينا أم كرهنا — الا ساعة تدعوها الطبيعة لحفظ النوع . أعدوا المرأة لكسب قوتها بالعمل ذلك خير من دفعها لا اكتسابه بالتفريط في عرضها . حسين محمود